

اللغة العربية و"اللغة العالمية" أية علاقة؟

أ.د. شامة خير الدين

ملخص

تختلف اللغة العربية عن جميع اللغات الأخرى بأنها لغة القرآن الكريم، غير أن هذا التشريف الذي حظي به العرب، يعد مسؤولية في آن واحد، تفرض عليهم الحفاظ على لغتهم، عدم الاستسلام لمزاعم عدم صلاحيتها لتدريس العلوم، استغلال ثرائها ودقتها والأهم من كل ذلك الثقة بها لأنه وعلى نحو ما لاحظ جان لا بونس: "عندما تقرر مجموعة ما أن ثمن الحفاظ على لغتها لم يعد له مقابل كاف في شكل أرباح اجتماعية ونفسية، فإن هذه اللغة تختفي". وبالموازاة مع هذا التشكيك والتردد، أصبحت الإنجليزية لغة الشبكة العنكبوتية، النقل، الموسيقى، البنوك، السينما، التلفاز، العلم، الرياضة... إلى درجة تسميتها ب"اللغة العالمية"، بل هناك من بات يتكلم عن "نظام لغوي عالمي جديد"، كيف لا وعدد المتكلمين بها من غير أهلها بلغ ثلاثة أضعاف الناطقين بها كلغة أم. ومما يزيد في خطورة هذا الوضع أن هذا الاكتساح لا يعود حتما إلى الخصائص الذاتية لهذه اللغة "القاتلة"، بل إلى أسباب سياسية، اقتصادية وثقافية تضافرت لتحقيق القوة الناعمة للإمبراطورية الأمريكية. انطلاقا من كل ذلك تطرح الإشكالية التالية: إذا كانت اللغة العربية ذات مزايا تستدعي الدفاع عن بقائها، فإن دعاة "اللغة العالمية" يروجون لمزاياها العديدة أيضا، مما يطرح إشكالية العلاقة بينهما، فهل هي علاقة تجعل لغة الهوية العربية في حائر تراجع أم صمود واستفادة؟

مقدمة

إن المقابلة وجها لوجه بين اللغة العربية و"اللغة العالمية" ليست كآية مواجهة بين لغتين. إن الأولى شرفها المولى عز وجل بأن تكون لغة آخر رسالة سماوية، لسان خاتم الأنبياء والمرسلين ولغة أهل الجنة. إلا أن التخلف الذي يعيشه أهلها جعلهم يشككون في قدرتها على الحاقهم بركب الدول المتقدمة. أما الثانية، فإنها بعد أن كانت لغة الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس، أصبحت أيضا لغة القوة العظمى والتي اكتسحت حدود جميع الدول، مما سمح لها بالزعم بأنها أصبحت "اللغة العالمية" القادرة على توفير تعليم أجود وفرص عمل أضمن، ناهيك عن ترقية التجارة والاتصالات الدولية وتخفيض تكاليف الترجمة...

العربية في الحفاظ على لغة دينها وهويتها. إن تشريف العرب بجعل لغتهم لغة القرآن الكريم، تقابله دون شك، مسؤولية الدفاع عن هذا الشرف وعن هويتها التي تعد العربية الوعاء الحامل لها. إن صمود اللغة العربية هو الذي يسمح للعرب بالانفتاح الآمن على اللغات الأخرى، بما في ذلك الإنجليزية دون الذوبان في هويتها الثقافية.

أولا: العربية لغة الدين والهوية
لا يمكن النظر للغة العربية بصورة محايدة، لا سيما إذا تعلق الأمر بالعالم العربي، فهي فيه لغة الدين (١) والهوية (٢) في آن واحد.

١- العربية لغة الدين
إن المولى عز وجل لم يكتف بإنزال

القرآن الكريم باللغة العربية، بل أكد على علاقة هذه الأخيرة بالدين في عديد من الآيات، ومن قبيل ذلك قوله تعالى وكذلك أنزلناه حكما عربيا؛ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون"٢؛ "ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون"٣؛ "كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون"٤؛ ولوجعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي"٥؛ "وإنه لتزليل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين"٦؛ "وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا"٧؛ "إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون"٨؛ "ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين"٩؛ "وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا"١٠ "ولقد

وفي ظل كل ذلك، يطرح واجب الدول

تعدوان تكون وسيلة لتقريب المعنى، لكن النسخة الأصلية ستظل تلك المكتوبة باللغة العربية، ففي الصلاة، تستعمل الآيات القرآنية التي نزلت بلسان عربي مبين. كما أن الترجمات التي قام بها البشر قد تعدل وتغير، أما تنزيل رب العالمين، فإنه سيظل بلسان عربي مبين.

٢- العربية لغة الهوية الثقافية

لقد عرف المفكر الجزائري مالك بن نبي الثقافة بأنها "ذلك الجوامشتمل على أشياء ظاهرة مثل الأوزان والألحان والحركات وعلى أشياء باطنة كالآدوات والعادة والتقاليد، بمعنى أنها ذلك الجوالعام الذي يطبع أسلوب الحياة في مجتمع معين وسلوك الفرد فيه بطابع خاص، يختلف عن الطابع الذي نجده في حياة مجتمع آخر"^{١٨}.

أما اللغة، فقد عرفها معجم لاروس الفرنسي بأنها عبارة عن "نظام مدلولات شفاهية خاصة بكل مجموعة من الأشخاص والتي تستعملها للتعبير أوالاتصال مع بعضها بعض"^{١٩}. وبما أن اللغة خاصة بكل مجموعة على حده، وبما أن كل مجموعة لها خصوصياتها، فإنها لا يمكن أن تكون مجرد وسيلة اتصال محايدة.

إن اللغة من منظور الأستاذة كريستين فريشات ستظل "حاملة لهوية، قيم، تاريخ ومعنى. إنها تحقق التلاحم الاجتماعي وتدعم تنامي الإحساس بروح الانتماء إلى المجموعة"^{٢٠}.

وبناء على ما ذكر، يبدو أن اللغة هي سر تميز كل شعب عن غيره من وجهة نظر الياباني تادانوبي تسينودو Tadanobu

الإسلامي واللغة العربية هي التي جعلت السلف الصالح يحرص على لغة القرآن الكريم كحرصه على القرآن ذاته والدليل على ذلك، ما ورد في صحيح البخاري، بشأن كتابة القرآن الكريم بعد وفاة الرسول (ص) وعديد من حفظة القرآن الكريم: "حدثنا أبو اليمان: حدثنا شعيب، عن الزهري. وأخبرني أنس بن مالك قال: فأمر عثمان: زيد بن ثابت وسعيد بن العاص، وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمان بن الحارث بن هشام، أن ينسخوها في المصاحف، وقال لهم: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية القرآن، فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن أنزل بلسانهم ففعلوا"^{١٦}.

ولم يتوقف ذلك الحرص عند اللسان الأقرب إلى القرآن الكريم، بل حتى إلى التركيز على لكنة قارئ القرآن الكريم، ذلك ما يؤكد حوار المسور بن مخزومة مع الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ففي موسم الحج، حان وقت الصلاة، وكانت هناك جماعة خارج مكة، فتقدم رجل من آل أبي السائب، إلا أن المسور بن مخزومة قدم غيره؛ فلما عاد ابن مخزومة إلى المدينة، سأله الفاروق عن ذلك، فرد عليه قائلاً: "إن الرجل كان أعجمي اللسان وكان في الحج، فخشيت أن يسمع بعض الحجاج قراءته، فيأخذ بعجمته، فقال: أوهناك ذهبت؟ قال نعم، قال أصبت"^{١٧}. وقد يرى بعض الناس أن اللغة العربية هي بالفعل اللغة الأصلية للقرآن الكريم، لكن هذا الأخير ترجم في الوقت الحالي إلى لغات عديدة كالإنجليزية، الفرنسية، التركية، الإيرانية...؛ لذلك تجدر الإشارة إلى أن هذه الترجمات لا

نعم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين"^{١١}.

إن هذا التأكيد المتكرر بأن العربية هي لغة القرآن الكريم، يؤكد ليس فقط العلاقة الوطيدة بينهما، بل ضرورة التمعن والتفكير الجيد في سبب ذلك، خاصة أن الآيات السابق ذكرها، ورد فيها "لعلكم تتقون"؛ "لعلهم يتذكرون"؛ "لعلهم يتقون" و"لقوم يعلمون". فالأمر إذا لا يخلو من حكم، ولعله من بينها ما تتميز به اللغة العربية عن غيرها من خصائص ذكرها رسول الله (ص) بقوله "أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً"^{١٢} ولقد شرح العلامة بن خلدون معنى هذا الحديث بقوله: أن "الكلام العربي أوجز وأقل ألفاظاً وعبارة من جميع الألسن"^{١٣}. كما تظهر العلاقة المشار إليها جلية في قول العلامة بن خلدون أيضاً "والدين إنما يستفاد من الشريعة وهي بلسان العرب بما أن النبي صلى الله عليه وسلم عربي"^{١٤}. ويمكن القول بأن علاقة لغة الضاد بالقرآن الكريم أصبحت حاضرة في أذهان معظم المسلمين، خاصة عندما يشعرون بوجود خطر يدهم لغتهم. ويظهر هذا الربط بوضوح في نضال الإمام الجزائري عبد الحميد بن باديس ضد الاستعمار الفرنسي، فهو القائل: "إني أعلن أنني لست لنفسني وإنما أنا للأمة. أعلم أبناءها وأجاهد في سبيل دينها ولغتها"^{١٥} وهو القائل أيضاً: شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب من قال حاد عن أصله

أوقال مات فقد كذب
هذه الصلة الوطيدة بين الدين

Tsunodo

لقد رأى هذا اللساني البارِع في كتابه المخ الياباني The Japanese Brain أن الإجابة عن كل علامات الاستفهام التي تطرح حول هذا النمط المميز للثقافة اليابانية والطابع الخاص لسلوك الياباني المغاير لسلوك غيره، هي اللغة اليابانية، وبعبارة أخرى، فإن ما جعل اليابانيين يابانيين هو اليابانية باعتبارها اللغة التي تترجم وتعكس نظرتهم للعالم. ٢١

إن هذه الصلة الوثيقة بين اللغة والهوية تظهر عمليا في شكل ما تحمله كل لغة من قدرة أكثر من غيرها على التعبير عن هويتها الثقافية لذلك، فإن المستعمر الفرنسي عندما فرض اللغة الفرنسية على الجزائريين، كان هدفه المتوخى من وراء ذلك قتل الهوية الثقافية الجزائرية وذوبان الشعب الجزائري في هوية المستعمر، وهوما تصدت له جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بل وحتى بعض المثقفين الجزائريين الفرانكوفونيين بعد الاستقلال.

لقد أكد وزير الثقافة الجزائري الأسبق أحمد طالب الإبراهيمي أنه "للتعبير عن هذه الثقافة (...) بكل صدقها، لا توجد سوى وسيلة واحدة: اللغة العربية، إذ لا يمكننا سوى الاعتراف مع المؤرخين واللغويين بأن الشعب الذي يغير لغته هوشعب يغير روحه ومنظوره للعالم، لأنه وعلى غرار ما كتبه أحدهم: "الكلام بلغة أخرى ليس قول أفكارنا بكلمات أخرى، إنه تفكير آخر، وفي الوقت ذاته تفكير في شيء آخر (...) ومثل هذا التصرف لا يمكن أن يكون مفيدا لصحة أومستقبل شعب ما" ٢٢.

وتجدر الإشارة في الأخير، إلى أن العربية ليست لغة وطنية لدولة واحدة، بل إنها لغة حضارة بأكملها، ومن ثم تعتبر قاسما مشتركا بين جميع الدول المشتركة في هذا الموروث الحضاري، مع كل ما يحمله ذلك من دلالات وفي مقدمتها التلاحم بين أبناء الحضارة الواحدة من جهة، والقدرة على التعرف على هويتهم من جهة أخرى. ففي عهد التكتلات الاقتصادية، تمثل اللغة العربية قاسما مشتركا جامعا بين جميع العرب، فمن المحيط إلى الخليج، لا يحتاج أي عربي إلى ترجمان للتواصل مع عربي آخر. وعلى النقيض من ذلك، يقوم الاتحاد الأوروبي بترجمة إحدى عشرة لغة، لكي يفهم أبناء الدول الأعضاء فيه بعضهم بعض.

أما التعرف الذاتي على الهوية، كعنصر آخر من عناصر الحضارة، فإننا نجده في تعريف الأستاذ باسكال يونيفاس القائل: "الحضارة هوية ثقافية، تعرف بعناصر موضوعية (اللغات، الديانات، التاريخ، التقاليد، المؤسسات...) وبعنصر شخصي هو التعرف الذاتي للأشخاص على هويتهم" ٢٣. وهذا أمر في غاية الأهمية لأن الذي لا يمكنه التعرف على هويته، يمكنه أن يذوب في هوية غيره بكل سهولة وأكثر من ذلك: يصبح عرضة لهشاشة الانتماء.

ثانيا: اللغة العالمية: الانتشار والمحاصرة

لقد أدى الانتشار السريع للغة الإنجليزية الى نعتها ب "اللغة العالمية" (١) والتي أخذت تحاصر اللغات الأخرى ومن بينها اللغة العربية. (٢)

١- انتشار "اللغة العالمية"

لقد أصبحت اللغة الإنجليزية في مختلف مناطق العالم لغة الشبكة العنكبوتية، العلم، النقل، الموسيقى، التلفاز، السينما، البث، الرياضة... إلى درجة أن عدد المتكلمين بها من غير الناطقين بها كلفة أم، بات يقدر بثلاثة أضعاف، مما جعل البعض يعبر عن هذا الاكتساح ب "النظام اللغوي العالمي"، "النظام اللغوي الجديد"، "النظام اللغوي العالمي الجديد" ٢٤...

هذا الانتشار الواسع تكسبه أرقام معبرة جدا، فمواقع الشبكة العنكبوتية ذات الأصل الأمريكي تقدر ب ٧٠٪، ٩٦٪ من مواقع التجارة الالكترونية تستعمل الإنجليزية. ٢٥ كما أن ٦٥٪ من اتصالات العالم تنطلق من الولايات المتحدة. ٢٦ بل إن عديدا من الجامعات، أصبحت دروسها تعطى باللغة الإنجليزية، رغم كون معظم أساتذتها وطلبتها من غير الناطقين باللغة الإنجليزية، ومنها على سبيل المثال جامعة تورين Turin المتعددة التقنيات الفرنسية وجامعة جنيف السويسرية. كما تشترط بعض الكليات العربية على المشاركين في مؤتمراتها أن تكون المداخلة مكتوبة باللغة الإنجليزية.

كل ذلك، جعل الأستاذة Tove Skutnabb- كانغا Kangas تطلق على الإنجليزية "اللغة القاتلة" والتي يعود انتشارها الواسع، برأيها ليس إلى خصائصها كلفة بحد ذاتها، بل إلى سلطة دولتها. ٢٧. ويبدو أن الواقع قد يؤيد فعلا وجهة نظر الأستاذة سكوتناب-كانغا، فلقد كان الانتشار المشار إليه متاغما مع

Yaushau Sodik وهو من منطقة ياروبا النابيجيرية، أن بريطانيا قامت بإعادة كتابة لغة ياروبا بأحرف لاتينية بعد أن لاحظت أن الدين الإسلامي ينتشر في هذه المقاطعة على يد الياروبيين أنفسهم وليس العرب المسلمين. ٢٢ أما اليوم، فإن الإمبراطورية الأمريكية هي التي تواصل ما بدأتها الإمبراطورية البريطانية.

ولأن "اللغة العالمية هي في نوعها كالحجرة" الفيروزفالية" في الكيمياء" ٢٤ على حد قول المفكر أبيه فريقتوار Abbé Grégoire، فإن المحاصرة الأمريكية أكثر شراسة بفضل تحكم الولايات المتحدة في وسائل الإعلام والاتصال ومركزها الممتاز في المنظمات الدولية. وضمن سياق المحاصرة هذا، لخصت الأستاذة باربارا سايدالهورف Barbara Seidelhof مزايا "اللغة العالمية" في دراستها المعروضة على مجلس أوروبا سنة ٢٠٠٠م في: الوظيفة الاقتصادية- الثقافية والتي تختلف عن اللينقوا فرانكا المستعملة من قبل النخب؛ استقرار ثنائية اللغة بواسطة التعايش بين اللغة العالمية واللغات الأخرى وتعديل اللغة عبر مسارات التقارب والتباعد اللغوي" ٣٥.

وبعد هذا العرض بسنة واحدة، تم تبني التعريف النوعي للتعدد اللغوي للإطار الأوروبي المشترك والمرجعي للغات مجلس أوروبا ٢٠٠١ والذي ورد فيه "التنازل عن الهدف الذي لا يمكن بلوغه والممثل في الكتابة والتكلم كناطق أصلي. إن هدفا أكثر واقعية بدأ يطرح نفسه: بلوغ تحكم متعدد الثقافات للغة من خلال ثنائية لغوية تدخل الإنجليزية كلفة عالمية بدلا من رفضها" ٣٦.

عند الأستاذ بارنار كاسين القائل: إن الهيمنة الأمريكية لا ترتكز فقط على العوامل المادية كالاقتصاد والقوة العسكرية...، "إنها تتضمن أيضا وعلى وجه الخصوص التحكم في العقول أي في المرجعيات والرموز الثقافية ولا سيما العلامات اللغوية. إن اللغة الإنجليزية توجد في مركز نظام شامل، تلعب فيه دورا مماثلا لدور الدولار في النظام النقدي الدولي، فعلى غرار المركز المزدوج كوسيلة تسوية وعملة احتياط دولية مهيمنة للورقة الخضراء والتي تسمح للولايات المتحدة بأن تعيش على حساب بقية العالم، فإن حيابة اللغة المفرطة التمرکز، تمنحها ريع وضعية هائل" ٢١.

٢- محاصرة "اللغة العالمية" للغة العربية

إن فرض الإمبراطوريات للغاتها على حساب اللغات الأخرى ليس أمرا حديثا. فمن أجل عولمة لغتها، كانت روما تمنع استعمال لغات أخرى عند وعظها السفراء الأجانب بالتفاوض معها. ٢٢ وبطبيعة الحال، فإن تفاوض روما بلغتها التي تتحكم في ألفاظها ومعانيها مع أجنب لا يملكون ذات التحكم، يسمح لها باستغلال العبارات المطاطة والغامضة على غرار ما هو حاصل في أيامنا هذه.

كما استعملت الإمبراطورية البريطانية لغتها كوسيلة لاقتلاع جذور الدين الإسلامي من مستعمراتها الأفريقية التي أصبحت لغاتها المحلية تكتب بالألفباء العربية، بل إن العربية أصبحت لسان عدد هائل من سكانها وذلك عن اختيار طوعي؛ فلقد ذكر الأستاذ يوشو سوديك

استشرافات وكتابات كبار الساسة والكتاب الأمريكيين.

لقد أعلن المستشار الأسبق زيغنياف بريجنسكي Zbigniew Brzezinski أنه "بعد عهد المدفع (...) وعهد التجارة الدولية والمالية، فإن تقنيات وقنوات الإعلام تمثل الجيل الثالث للهيمنة على العالم". وبعد ثلاثين سنة، عاد ليعلن عن هذا البلد المهيمن، قائلاً أن الولايات المتحدة قد أصبحت الجاذب الثقافي العالمي" ٢٨. ووسيلة إيصال هذه الثقافة الى العالم هي حتى في أبسط حالاتها اللغة الإنجليزية، فمن منا يسمي البورغر بطريقة أخرى؟

ومع بداية التسعينيات، وضمن نفس السياق، طرح الأستاذ جوزيف ناي Joseph Nye مفهوم "القوة الناعمة" والذي عرفه بقوله: "يمكن لدولة ما أن تحقق نتائج (...) لأن بقية الدول تريد أن تقتدي بها أو توافق على وضعية تنتج آثارا مماثلة (...) هذا المظهر الثاني من القوة والذي يحدث عندما تحصل دولة ما من الأخرى على ما تريده هي، يمكن تسميته (...) قوة ناعمة، بما يقابل القوة العنيفة أو قوة سلطة أمر الآخرين بالقيام بما تريد" ٢٩.

وبما أن اللغة الإنجليزية هي الوعاء الحامل لتلك القوة الناعمة، فإن الأستاذ دايفيد روتكوف لم يتردد في القول: "إنه لمن مصلحة الولايات المتحدة اقتصاديا وسياسيا أن تسهر على أنه إذا تبنت العالم لغة واحدة، فلتنك الإنجليزية" ٣٠. ولكن قد يتساءل كثير من الناس كيف يمكن للغة الإنجليزية أن تخدم الهيمنة السياسية والاقتصادية الأمريكية؟

إن الإجابة عن هذا السؤال نجدها

وقد يقال أن هذا المثال لا صلة له بالدول العربية نظرا لتقسامها اللغة ذاتها. غير أن الأمر مختلف ف"اللغة العالمية" مطروحة على المستوى الداخلي للدول ضمن مجموعة من اللغات الأقرب لها مثل: الروسية، العبرية والانجليزية أو العربية، الإنجليزية والبربرية، ٢٧ وهي واقع يومي داخل الدول ذات العمالة الأجنبية المكثفة كدول الخليج.

كما أنها مطروحة على مستوى هيئات أخرى توجد الدول العربية ضمن أعضائها. فعلى مستوى المحكمة الجنائية الدولية تقضي المادة ٥٠ من نظامها الأساسي ١٩٩٨ بأن العربية، الفرنسية، الإسبانية، الروسية، الصينية والإنجليزية لغات رسمية فيها، غير أن أحد مستشاريها القانونيين وهوسريل لوتشي Cyril Laucci ذكر بأنه رغم كون ٢١ قضية مطروحة أمام المحكمة تخص دولا فرانكوفونية، فإن اللغة الإنجليزية هي الأكثر استعمالا ٢٨. وإذا كانت هذه حال اللغة الفرنسية، فإن وضعية العربية لن تكون أحسن مع أن أربع دول عربية معنية بما يجري في المحكمة الجنائية الدولية وهي ليبيا، السودان، سوريا وفلسطين.

أما الأمم المتحدة والتي تعد اللغات الست المذكورة أعلاه لغات رسمية فيها، فإن أحسن من أثار موضوع محاصرة الإنجليزية فيها وآثارها السلبية هو الأمن العام الأسبق بطرس غالي القائل: "إن أول سبب لموقفنا من التعدد اللغوي هو احترام المساواة بين الدول. نعلم جميعا أن إلزام الموظفين الدوليين، دبلوماسيون أم وزراء بالتعبير بغير لغتهم يعادل وضعهم في وضعية أدنى ويحرمهم من القدرة على

التدقيق والتهديب، مما يؤدي الى القيام بتنازلات لأولئك الذين تكون لغتهم الانجليزية اللغة الأم. كما أننا نعلم جميعا أن المفاهيم التي تبدو متماثلة، هي في معظم الأحوال مختلفة من ثقافة إلى أخرى. إن الكلمات تعبر عن ثقافة، طريقة في التفكير ونظرة للعالم. من أجل جميع هذه الأسباب، أعتقد أنه كما أن ديمقراطية أي دولة تقوم على التعددية، فإن الديمقراطية بين الدول يجب أن تركز على التعدد اللغوي" ٢٩. فضلا عن ذلك، ذكر أحد الخبراء أنه عند عقد اجتماع بلغة واحدة تتراجع نوعيته ب ٤٠ ٪ كما اعترف بأنه خلال الأنشطة اليومية للأمم المتحدة، يغيب التوازن بين اللغات لصالح اللغة الإنجليزية المسيطرة والتي لا يتقنها عديد من الممثلين ولاسيما ممثلي المنظمات غير الحكومية والذين يهملون تماما كل ما غابت الترجمات الفورية حتى بلغات الأمم المتحدة. ٤٠

ومما يؤكد نية المحاصرة من خلال "اللغة العالمية" أن أنصارها يستندون إلى ضرورة تخفيض نفقات الترجمة، لكن دراسة جادة أثبتت أن تكاليف الخدمات اللغوية بالاتحاد الأوروبي والذي يترجم ١١ لغة، تقدر ب ١,١ مليار يورو سنويا أي ما يمثل أقل من ١ ٪ من الميزانية أي ٠,٠٠٨٧,٠ أو ٧,٠ يورو من كل مواطن يزيد عمره عن ١٥ سنة. ٤١

ثالثا: العلاقة بين اللغتين العربية و"العالمية"

إن المواجهة بين العربية والانجليزية ليست كأية مواجهة بين لغتين، فالأولى تعد

لغة الدين والهوية والثانية لغة أقوى دولة في العالم، مما أدى إلى فرضها ك"لغة عالمية". لكل ذلك، تقتضي العلاقة بينهما ضرورة صمود الأولى (١) وانفتاحها على الثانية (٢)

١- ضرورة صمود اللغة العربية

إن اللغة العربية تصمد بصمود أهلها شعوبا وحكومات، وبداية ذلك تكون بالثقة بها. ولقد صدق عالم السياسة الفرنسي جان أ. لابونس Jean A. Laponce حين قال: "عندما تقرر مجموعة ما أن ثمن المحافظة على لغتها لم يعد له مقابل كاف في شكل أرباح اجتماعية ونفسية، فإن اللغة تختفي (...)" ٤٢

ولئن كان اختفاء اللغة العربية مستحيلا، لأن المولى عز وجل يقول: "إننا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون" ٤٣. وهذا يعني أن حفظ القرآن الكريم هو في الوقت ذاته حفظ لغته، فإن ذلك لا ينفي جميع النتائج السلبية الأخرى وفي مقدمتها الهوية الهشة.

وبما أن معظم الذين فقدوا لغتهم في اللغة العربية يستندون إلى أنها لم تعد لغة علم، فإنه من المفيد التذكير بما قالته الأستاذة لطيفة النجار بهذا الصدد: "إن عقبة عدم الكفاية التي تعاني منها كثير من اللغات ليس سببها اللغة في ذاتها، بقدر ما هي مرتبطة بالمتعلم نفسه، ومستواه التعليمي وقدرته الاقتصادية والبشرية على دعم لغته ورغيبته في إنجاز هذا الفعل التاريخي" ٤٤. ناهيك عن كون الدراسات العلمية، النظرية منها والتطبيقية تؤيد التعليم باللغة الأم ومن قبيل ذلك: دراسة دوتشر حول استخدام اللغة الأولى واللغة

الناس يتكلمون الإنجليزية، فقدمت على عدم استغلال ذلك الوقت في تعلم اللغة الإنجليزية! ٥٠
أما شعب الكامازين Kamasins والذي كانت لغته الأصلية الصامويديّة Samoyède، فقد انتقل إلى اللغة التركية بدءاً من ١٨٤٠، ليجد نفسه بعد عشرين سنة قد انتقل إلى اللغة الروسية! ٥١

٢- الانفتاح على "اللغة العالمية"

قد يفهم بعض الناس الدفاع عن اللغة العربية بأنه انطواء على لغة واحدة وانعزال عن معرفة جميع اللغات الأخرى وفي مقدمتها الإنجليزية باعتبارها الأكثر انتشاراً في الوقت الحالي. إلا أن هذا الاعتقاد مجاف للمنطق تماماً.

لقد كرم المولى عز وجل اللغة العربية بجعلها في أن واحد لغة القرآن الكريم، المصطفى (ص) والجنة، لكنه لم ينكر على الشعوب الأخرى استعمال لغاتها، حيث يقول تعالى: "ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين" ٥٢. ولذلك، كان عليه الصلاة والسلام يرسل من يتعلم لغات أقرام أخرى ومن بينهم زيد بن ثابت والذي كان يحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب ويتعلم اللغات الأجنبية بطلب من رسول الله (ص)، بل إن ابن ثابت هوداته الذي أسند إليه الخليفة الراشد أبو بكر الصديق مهمة كتابة القرآن الكريم وأوكل إليه أيضاً الخليفة الراشد عثمان بن عفان ما يعرف بالمرحلة الثانية من جمع القرآن الكريم في مصحف واحد بعد أن استلم هووالفريق العامل معه المصاحف الأربعة التي كانت عند أم المؤمنين حفصة

العربية المتحدة.

كما يعتبر واجب الدفاع عن اللغة العربية التزاماً دولياً بالنسبة إلى الدول الأطراف في المعاهدة الثقافية العربية (وهي الأردن، سوريا، العراق، السعودية، لبنان، مصر واليمن)، حيث التزمت بأن "... (عمل على الوصول باللغة العربية إلى تأدية جميع أغراض التفكير والعلم الحديث وجعلها لغة الدراسة في جميع المواد في كل مراحل التعليم في البلاد العربية" ٤٧.

وبمقتضى الإعلان العالمي لحقوق الشعوب، فإنه "لكل شعب الحق في الكلام بلغته والمحافظة على تطوير ثقافته، للمساهمة على هذا النحو في إثراء الثقافة الإنسانية" ٤٨. وما هو حق للشعوب هو واجب على دولها...

وحتى في حالة غياب نصوص قانونية، فإن جميع الدول يقع عليها واجب تحقيق الأمن اللغوي لشعوبها والذي يقول بشأنه الأستاذ دومينيك برايا Dominique Breillat: لقد قضى المستعمر على ١٥٪ من اللغات، لكن هذا المسار سيكون "أخطر بكثير مع العولمة، لذلك، فإن الدفاع عن اللغات هو انشغال دائم ويرتكز على فكرة الأمن اللغوي" ٤٩.

إن عدم الدفاع عن لغة الدولة من شأنه أن يفاجئنا بوضعيّات غريبة على غرار تلك التي ذكرتها الأستاذة لطيفة التجار في كتابها اللغة...جدل الهوية والمعرفة أوعلى نحو ما حصل للكامازين.

فقبل انتقال سيدة يابانية إلى الإمارات العربية المتحدة، قضت ستة أشهر في تعلم اللغة الرسمية لهذه الدولة، لكنها عند قدمها، وجدت أن جميع

الثانية في العلم (١٩٩٦)؛ دراسة كالمركز اللغويات التطبيقية (واشنطن ٢٠٠١)؛ دراسة بيكر حول ثنائية اللغة (٢٠٠١) وتقريراً اليونيسكو حول التعليم باللغة الأم (٢٠٠٢). ٤٥.

وللتأكيد على مدى أهمية ثقة أي شعب في لغته، يمكننا أن نتذكر ما حصل للإنجليزية ذاتها. ففي القرن الثامن وعلى إثر الانتصار الساحق للفيكينغ على الأنجوسكسونيين، كادت الإنجليزية أن تختفي، ليحل محلها النوروا لغة المنتصر، حيث لم يبق لهذا الأخير سوى بعض المعارك لحسم الحرب كلياً لصالحه؛ وعند غزودوق النورمان قيوم لوكانكيرا Guillaume le conquérant لإنجلترا في القرن الحادي عشر، جعل الفرنسية اللغة الرسمية والوحيدة للبلاد وللإدارة الملكية، وحتى على المستوى الشعبي، لم تكن تتكلمها سوى الطبقات الدنيا، أما الطبقة المسيطرة، فقد كانت تتكلم الفرنسية، كما أن الإنجليزية لم تدخل برلمان لندن إلا سنة ١٢٦٢ بعد حرب الثلاثين سنة والتي جعلت الفرنسية في نظر الإنجليز لغة المستعمر؛ وعلى العموم، فقد بقيت لغة ضعيفة إلى غاية القرن السابع عشر. ٤٦ لتصبح اليوم على ما هي عليه.

وبطبيعة الحال، فإنه كلما ازدادت ثقة الدولة بلغتها، كلما عملت على الدفاع عنها، خاصة وأن هذا الدفاع يعد التزاماً أخلاقياً وقانونياً تفرضه دساتير جميع الدول العربية والتي تنص على أن العربية هي اللغة الرسمية للدولة. وللتذكير، فإن بعض الدول يحمل اسمها صفة العربية على غرار جمهورية مصر العربية، الجمهورية العربية السورية والإمارات

بنت عمر ٥٢ رضي الله عنهما.

وفي الواقع، لولا معرفة العلماء العرب القدامى للإغريقية لما اطلعوا على المؤلفات التي ترجموها ولولا التحكم في لغتهم لما أجريت الترجمة إليها.

كل ذلك يعني أن الدفاع عن اللغة العربية لا يعني رفض الانفتاح على لغة أخرى، بل إنه يبتغي أن تأتي هذه الأخيرة ونحن نقف على أرضية صلبة لأنه "يجب أن يكون للمرء بيت حتى يمكنه استقبال الآخرين" ٥٤.

إن الثقافات يفترض فيها أن تكون مثرية لبعضها بعض وليس ماحية لبعضها بعض، لذلك، فإنه عندما تصبح اللغة الأجنبية خطراً، ستكون النتيجة الانغلاق بدلا من الانفتاح وهذا لن يكون في مصلحة البشرية. لذلك نجد عددا من العلماء لا ينكرون أهمية معرفة اللغات الأخرى وثقافتها للاستفادة المتبادلة وتوسيع آفاق الفكر.

لقد كان الإمام مالك بن نبي يقول أن "الضمير الإنساني الذي لم يألف العمل على حدود الثقافات، مازال تسيطر عليه عادات جذبية مزمنة، تحمله على أن يرى الأشياء من زاوية ضيقة (...). فنحن مضطرون أحيانا إلى أن نفكر في هذا النقص الذي أصاب الإنسان، فقعده به عن ملاحقة توقيت التاريخ وأن يفكر في سد هذا النقص" ٥٥.

كما يرى الأستاذ مصطفى شريف أن "موروثنا الثقافي المتقاطع منبع ثمين للإلهام (...). إن الدوران الجميل للغات، المعارف وروح الضيافة كل ذلك قد فسح المجال من ناحية إلى التأحد uniformisation ومن ناحية أخرى إلى

الانطواء الثقافي" ٥٦.

إن هذه المقولة تحمل أكثر من دلالة، فالثقافات المختلفة لا شك أنها منبع إلهام واستفادة بالنسبة الى الجميع، لما تحمله من لغات ومعارف وفنون وتجارب... غير أن كل ذلك مرهون بما أسماه الأستاذ مصطفى شريف "الدوران الجميل للغات" وليس فرض لغة واحدة لتسليط ثقافة واحدة على العالم بأكمله، فهذه الهيمنة، إما أن تقتل الثقافات الأخرى بلغاتها وإما أن تدفعها إلى خيار آخر سيئ وهو الانطواء على الذات.

وبناء عليه، فإن التحدي الحقيقي بالنسبة الى العالم العربي هو كيف يمكن استعمال أي لغة أخرى وليس فقط "اللغة العالمية" كوسيلة، دون الذوبان في ثقافتها. ويقتضي هذا الأمر:

من ناحية أولى: التمسك باللغة العربية والثقة بها والدفاع عنها لأن الأمراض الفتاكة لا تصيب سوى الأجسام التي ليست لها مناعة، ومناعتنا كعرب هي في لغة ديننا وهويتنا، نستعملها دون عقدة نقص ودون إصااق تهمة التخلف بها، لأن تخلفنا هو الذي أساء إليها وليس العكس.

من ناحية ثانية: الحذر من قول بعض أنصار "اللغة العالمية" بأن هذه الأخيرة لن تقتل اللغات الأخرى، إذا كانت لم تقتل أصلا لغات الأقليات الموجودة فيها.

إن الولايات المتحدة تحترم فعلا لغات أقلياتها والأمثلة المؤكدة لذلك عديدة. إن الدستور الأمريكي ١٧٨٧ لم ينص على لغة محددة كلفة رسمية للدولة، مما أعطى الحق لعدد من الولايات في اتخاذ مبادرة بهذا الشأن لمواجهة مزاحمة الإسبانية وهي لغة المهاجرين من أمريكا اللاتينية،

فنص دستور أريزونا على أن الإنجليزية هي اللغة الرسمية والوحيدة لهذه الدولة. غير أن القضاء اعتبر هذا القانون منتهكا لحرية التعبير كحق دستوري. ٥٧.

كما أن قانون السكان الأصليين الأمريكيين ١٩٩٢ يعترف للسكان الأصليين: الهنود، الألاسكيين وكذا السكان الأصليين لهواي وجزر المحيط الهادي ب"المحافظة على لغاتهم المحلية الأصلية وممارستها وترقيتها" ٥٨.

غير أن الفارق بين السياسة الأمريكية الداخلية والخارجية شاسع جدا، فعلى الصعيد الداخلي، يضمن الدستور الفدرالي ودساتير الولايات حقوق الأمريكيين. كما يدافع عنها قضاء مستقل وله الفضل في تفعيل نصوص الدستور بما يثري حقوق الأمريكيين أكثر فأكثر. أما على الصعيد الدولي، فإن موازين القوى تميل كلها لصالح الولايات المتحدة، فلا القانون الدولي ولا القضاء الدولي يمكنهما ردعها.

الخاتمة

في ختام هذه الورقة، يمكن التوصل الى بعض الاستنتاجات وكذلك ابداء بعض الاقتراحات

أولاً: الاستنتاجات

- ١- تتمثل هذه الاستنتاجات في ما يلي: وجود علاقة وطيدة بين اللغة والهوية الثقافية بكافة أبعادها بما في ذلك البعد الديني والذي يفرض أصلا على العرب المحافظة على لغة القرآن الكريم.
- ٢- خطورة الاكتساح المبرمج للغة

٢- عدم جعل العلاقة بين اللغة العربية و"اللغة العالمية" علاقة استسلام أو علاقة عدا، فالمللوب هو المكانة الصلبة للغة العربية والانفتاح على بقية اللغات ومنها الإنجليزية، لأن الأرضية اللغوية الصلبة هي وحدها التي تسمح بالانفتاح على اللغات الأخرى والاستفادة منها دون عقدة نقص أو ذوبان في هويات الآخرين.

الذكر، يمكن تقديم الاقتراحات التالية:
١- عدم التعامل مع اللغات كما لو أنها محايدة، فجميع لغات العالم تعبر عن هوية مميزة، تاريخ ونظرة للعالم...
٢- عدم الاستسلام للزعم بقدرته الإنجليزية وحدها على الحاق الدول العربية بركب الدول المتقدمة، بل إن عديدا من الدول أثبتت العكس، حيث تطورت في حضن لغاتها الأم.

الإنجليزية والهادف الى فرضها ك "لغة عالمية" على حساب لغات الشعوب الأخرى.
٢- خطورة الاختيار بين الانطواء الثقافي والذوبان في لغة وهوية الغير، لأن كلاهما لا يخلو من مساوئ.

ثانيا: الاقتراحات

على ضوء الاستنتاجات السابقة

الهوامش

١-الرعد/ ٣٧

٢-يوسف/ ٢

٣-الزمر/ ٢٧-٢٨

٤-فصلت/ ٣

٥-فصلت/ ٤٤

٦-الشعراء/ ١٩٣-١٩٥

٧-الشورى/ ٧

٨-الزخرف/ ٣

٩-الأحقاف/ ١٢

١٠-طه/ ١١٣

١١-النحل/ ١٠٣

١٢-نقلا عن عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار العلم، بيروت، ١٩٧٨، ص ٥٥٦

١٣-المرجع نفسه، ص ٢٧٩

١٤-المرجع نفسه، ص ٢٧٩

١٥-نقلا عن محمد الطاهر فضلا، دار الشهاب، باتنة، (بدون تاريخ نشر)، ص ٧٩

١٦-الإمام أبي عبد الله البخاري ١٩٤-٢٥٦هـ، صحيح البخاري، دار صادر، بيروت، ص ١١٩

١٧-محمد راوس قلعه جي، موسوعة فقه عمر بن الخطاب، (بدون دار ومدنية نشر)، ١٩٨١، ص ٤٤٥

١٨-مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر العربي، دمشق، الطبعة السادسة، ٢٠٠٦، ص ١٤٧

١٩ -Larousse ٢٠٠٨، Editions Larousse. Paris. ٢٠٠٧، p.٥٧٨

٢٠ -Christine Fréchette, <<Protéger la langue à l'ère de la mondialisation>>, mars ٢٠٠٧, www.cslf.gouv.qc/publications/pubf٢٢٠/f٢٢٠.pfd. consulté le ٢٠١٠/٠٧/١٨ à ٩h١٠mn

٢١-إدريس مقبول، المخفي والمعلن في الخطاب الأمريكي، منشورات الزمن، الدار البيضاء، ٢٠٠٧، ص ٩٦-٩٧

٢٢ -Ahmed Taleb Ibrahim. De la décolonisation à la révolution culturelle (١٩٦٢-١٩٧٢)، SNED, Alger. ٢eme édition, ١٩٨١.

- ٢٣ -Pascal Boniface. Comprendre le monde. ANEP. Alger. ٢٠١٠. p.٢٠١
- ٢٤ -Larissa Aronin. Daphné Romi-Masliah. <<L'anglais et les cultures : carrefour ou frontière ?>>. Droit et culture (Online). ٢-٢٠٠٧/٥٤ online since ٢٨ January ٢٠٠٩. connection on ٠٤ October ٢٠١٦ : <http://droitculture.revue.org/٦٧>
- ٢٥ -Fouad Benhala. Le choc de la communication globale : pouvoirs et sociétés arabes face au défi. Publisud. Paris. ٢٠٠٥. p. ٦٠
- ٢٦ -Armand Mattelard. <<La nouvelle idéologie globalitaire>>. Mondialisation au -de-là- des mythes. (ouvrage collectif). Casbah éditions. Alger. ١٩٩٧. p. ٨٥
- ٢٧ -Rapport sur les droits linguistiques dans le monde : la situation actuelle. Nations Unies. Genève. ٢٤ avril ٢٠٠٨. p. ٤
- ٢٨ -Cité par Fouad Benhala. op. cit. p. ٥٨
- ٢٩ -Joseph S.Nye. (Soft Power). Foreign Policy. N :٨٠. Autumn. ١٩٩٠. p.١٧١-١٥٢) ١٦٦)
- ٣٠ -Cité par Herbert Schiller. <<Vers un nouveau siècle d'impérialisme américain>>. Le Monde diplomatique. n ١٩٩٨ .٥٢٣^٥. pp. ١٩-١٨
- ٣١ -Bernard Cassen. <<Un monde polyglotte pour échapper à la dictature de l'anglais. Le Monde diplomatique. n^٥ ٢٠٠٥ .٦١٠. p.٢٢
- ٣٢ -Abbé Grégoire. <<Une république une et indivisible. l'usage unique et invariable de la langue de la liberté>>. Etre français. Les Grands textes de Montesquieu à Edgar Morin : Les nouveaux défis. Le Monde. (hors-série). ٢٠١٦. p.٥٧
- ٣٣ -Yushau Sodik. <<Muslims and Christians in Yarubaland : Unavoidable Neighbours. Essays and world Christianity. Editions Peter long. Paris. ٢٠١٠. pp.٢٧٣-٢٧١. cité par Mourad Benachenhou. <<Décoloniser la linguistique>>. www.algeriesite.com.article٥٢٢٣٩٤٦- .consulté le ٢٠١٧/٠١/٢٧ à ٢٣: ١٤ mn
- ٣٤ -Abbé Gregoire. op. cit. p.٥٧
- ٣٥ -Larissa Aronin. Daphné Romi-Masliah. op. cit. p.٣
- ٣٦ -La définition qualitative du plurilinguisme du cadre européen commun de référence pour les langues du conseil de l'Europe de ٢٠٠١. <https://halshs.archives-ouvertes.fr/halshs٠٠٦٩٠٥٠٧-/document> .consulté le ٢٠١٦/٠١/٢٧ à ١٦:٣٠
- ٣٧ -Larissa Aronin. Daphné Romi-Masliah. op. cit. p٧
- ٣٨ -Cyril Laucci. <<Quand le droit anglo-saxon s'impose>>. Le Monde diplomatique. n٧٢١^٥. avril ٢٠١٤. p. ١٦) .١٦)
- ٣٩ -Cité par Dominique Hoppe. <<Le cout du monolingue des Organisations internationales>>. Le Monde diplomatique. n٧٢٤^٥. Mai ٢٠١٥. p. ٩) ٩)
- ٤٠ -Rapport sur les droits linguistiques...op. cit. p.١
- ٤١ -Dominique Hoppe. op. cit. p.٩
- ٤٢ -Jean A.Laponce. Langue et territoire. Puf. Paris. ١٩٨٣. p.٥٧. cité in La mort des langues. <http://www.axl.cefan.ulaval.ca/langues/٢vital.ca/langues/٢vitalmordlangues.htm> .consulté le ٢٠١٦/١٢/١٨ à ١٨ ٣٠mn

٤٣-سورة الحجر/٩

٤٤-لطيفة النجار، اللغة...جدل الهوية والمعرفة، العالم العربي للنشر والتوزيع، دبي، ٢٠٠٨، ص ١١

٤٥-لمزيد من التفاصيل، انظر المرجع نفسه، ص ٩

La mort des langues. op. cit-٤٦

٤٧-المادة ٩ من المعاهدة الثقافية العربية

٤٨ -Article ١٣ de la Déclaration universelle des droits des peuples proclamée à Alger en ١٩٧٦

٤٩ -Dominique Breillat. <<La sécurité linguistique>>. La sécurité humaine : théories et pratiques. (ouvrage collectif sous la direction de Rahim Kherrad). Pedone. ٢٠١٠. p. ١١٩

٥٠-لطيفة النجار، المرجع السابق، ص٢٥

La mort des langues. op. cit-٥١

٥٢-سورة الروم/ ٢٢

٥٢ -Khalid Mohammed Khalid. Des hommes autour du prophète. traduit par Abdou Harkat. Dar El Koutoub Al-Ilmiyah. Beyrouth. ٢٠٠٤. pp.١٩٥-١٩٤

١٩٤. Ahmed Taleb Ibrahim. op. cit. p-٥٤

٥٥-مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٩، ص ٩٩

٥٦-Le Soir d'Algérie- Mustapha Chérif. <<Ou va l'humanité>>. ٢٦ octobre ٢٠١٦. ٨.p

٥٧. Dominique Breillat. op. cit. p-١٢١

أنظر أيضا التعديل الأول من الدستور الأمريكي ١٧٨٧

٥٨ -Pour plus de détails. voir Intérêt culturel et mondialisation. Tome ١ : Les protections nationales. (sous la direction de Nébila Mezghani et Marie Cornu). L'Harmattan. Paris. ٢٠٠٤. p. ٣٢١